تقديم أطروحة :

«المجتمع القبلي وتأثير التحولات الإقتصادية والإجتماعية بأقصى الجنوب التونسي، شبه جزيرة جرجيس نموذجا»(•)

سالم لبيض

إن إطار هذا البحث هو منطقة أقصى الجنوب التونسي على وجه العموم وهي المنطقة التي اكتسبت بعض الخصوصيات أثناء الفترة الإستعمارية نظرا إلى أنها المنطقة الوحيدة بالبلاد التونسية التي خضعت لنظام عسكري وكانت تطلق عليها السلطة الإستعمارية تسمية منطقة التراب العسكري على عكس بقية مناطق البلاد التي كانت تسمى المراقبات المدنية، وكما هو الشأن بالنسبة إلى منطقة أقصى الجنوب فإن شبه جزيرة جرجيس لا تزال تحظى بشيء من التبجيل العلمي من طرف بعض الباحثين والدارسين نظرا لضعف البحوث والدراسات التي أجريت حول هذه المنطقة سواء إبان الفترة الإستعمارية أو بعد قيام الدولة الوطنية الحديثة وهو ما يعطي الباحث القدرة على إحداث الإضافة العلمية المرجوة.

وهذا البحث هو مواصلة لاهتمام سابق تجسد في إنجاز مذكرة شهادة الكفاءة في البحث حول القبيلة والمقاومة في أقصى الجنوب التونسي وهو نتيجة لجملة من الشواغل العلمية والتساؤلات التي كانت تطرح بسبب

(*) وقعت مناقشة هذه الأطروحة بقسم علم الإجتماع بكلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس يوم 29 جوان 1999 وقد أشرف على إنجازها أ. د. عبد الوهاب بوحديبة.

معايشة كثير من الظواهر والمجادلات المتعلقة بالمسألة القبلية مثل الصراعات التي تبرز بفعل تأثيرات الملكية الجماعية للأرض أو تأثيرات المنافبات السياسية المحلية والتي تظهر خلفياتها العشائرية والقبلية إضافة إلى محاولات التأسيس وبناء الذاكرة حول جذور سكان جرجيس وأصولهم العرقية.

يمكن تصنيف هذا البحث ضمن البحوث الميكروسوسيولوجية أو علم الإجتماع المجهري الذي يهتم بالظواهر الإجتماعية الصغرى وقد اعتبرنا ذلك حلقة من حلقات «علم الإجتماع المناضل» وهي التسمية التي أطلقها الدكتور عبدالوهاب بوحديبة سنة 1968 على سوسيولوجيا الملموس والواقع والتاريخي والتي تتمايز بدون شك مع سوسيولوجيا المكاتب المغلقة.

تتمحور إشكالية هذا البحث حول قدرة المجتمع القبلي في المستوى المحلي بمختلف مؤسساته وقوانينه وأعرافه ونظمه وقيمه على الصمود والتواصل في ظل التحولات الإقتصادية والإجتماعية التي ساهمت ولا تزال في تغيير أوجه الحياة وأنماط التفكير وسلوكات الأفراد.

إن المنهج المعتمد في هذا البحث هو منهج (بدون ألف ولام) تحليلي تاريخي - إجتماعي يرتكز على مبدأ التداخل والتواصل بين الحقول المعرفية من علم إجتماع وتاريخ اجتماعي وانثرويولوجيا وإثنوغرافيا... إلخ وليس الفصل بينهما مع إعطاء الأولوية للواقع كمقياس لمعرفة مدى صدق النظريات والمناهج وليس العكس على أرضية الإستفادة من مختلف المناهج والنظريات في حدود ما يخدم البحث، مع إرجاع الظواهر الإجتماعية إلى جذورها التاريخية وتحليل مختلف تمظهراتها في الواقع وفي المعيش اليومي وهو توجه ينتمي الى حقل معرفي جديد بدأ يبرز في الغرب تحت اسم تاريخ الحاضر، وقد اقتضت عملية البحث الإعتماد على جملة من الأدوات البحثية لجمع البيانات لعل أبرزها هي الملاحظة بالمشاركة أو بالمعايشة والمقابلة والإستبيان. وينقسم إلى ثلاثة أبواب رئيسية وإلى إحدى عشرة فصلا.

الباب الأول : الإطار المنهجي، النظري والتاريخي :

1 - الحدود المنهجية
2 - المجتمع القبلي : مقاربة نظرية
3 - الخصائص التاريخية للمجتمع القبلي التونسي

الباب الثاني : جرجيس : القبيلة، المؤسسات وفعل الإستعمار الفرنسي

1 - منطقة جرجيس من فترة ما قبل التاريخ إلى الإحتلال الفرنسي
2 - البناء القبلي في شبه جزيرة جرجيس : قبيلة عكارة ثنائية الوحدة التعدد
3 - البناء المؤسسي والإداري : الإستراتيجية الإستعمارية في تفكيك مؤسسات المجتمع المحلي
4 - أشكال الممارسة الثقافية التقليدية في المجتمع المحلي العكاري

الباب الثالث : القبيلة : أشكال الملكية، التحولات واختلاف الأدوار

1 - التحولات في أشكال الملكية بجرجيس
2 - التحولات الإقتصادية بجرجيس
3 - التحولات الإجتماعية والعمرانية
4 - القبيلة في ظل التحولات أو أدوار القبيلة بين الأمس واليوم.

يعتبر مفهوم القبيلة مفهوما مركزيا في بحثنا. «فالقبيلة هي عبارة عن مجتمع كامل التنظيم مؤلف من مجموعة من العشائر من أصل واحد حقيقي أو مزعوم ومن مقوماتها الرئيسية العصبية»، إلا أن ذلك لا يحول دون سقوط الأنساب من شعب الى شعب والتحام قوم بآخرين على حد تعبير «ابن خلدون» الذي يلتقي معه في ذلك «بارك» الذي يرى أن التسمية المشتقة من جد مشترك تخفي وراءها نوعا كبيرا في أصول السكان ويؤيد «قلنز» الفكرة بإقراره مبدأ تبني الأجانب وإدماجهم داخل الفئات السلالية

للقبيلة وهو ما لا يخل بنمط التنظيم المبني على القرابة والنسب الفعلي أو المزعوم.

ولقد بينت النتائج التي انتهينا إليها في البحث أن واقع المجتمع المحلي في أقصى اجنوب التونسي ومن خلال دراسة جهة جرجيس التي استقرت بها قبيلة عكارة تاريخيا أن القبيلة بما هي مجتمع مغلق يحتكم أفراده الى مؤسسات وأعراف وقوانين (شرطية وعرفية) وأنماط إقتصادية وأنظمة اجتماعية خاص بهم قد انتهى إلى الإضمحلال بسبب تأثير التحولات الإقتصادية والإجتماعية العميقة التي عرفتها المنطقة المدروسة إلا أن الظاهرة القبلية كظاهرة اجتماعية ـ تاريخية إستطاعت مقاومة التحديات التي اعترضتها وعملت على محو وجودها فقد بينت القياسات التي قمنا بها والتي تمثلت في ترك المجال لأعضاءمجتمع البحث حتى يعبروا عن موقفهم من أشكال الوعي والإنتماء القبليين أن الظاهرة مازالت تحظر في وعي الأفراد وأن الإنتماء القبلي لا يزال يبرز في السلوكيات والمواقف الجمعية والفردية مثل المحافظة على اسم الجماعة القبلية أي عكارة والإنتساب إلى جدها سيدي الصباح العكاري، كما أن الإنتماء إلى عكارة كهوية قبلية يمثل عنصر تمييز عن الجماعات القبلية المجاورة والإنتماء إضافة إلى ذلك إلى مجموعات صغرى تسمى العروش تميل إلى الإنقسام والإلتحام بحسب الظرفية التاريخية، فأثناء المناسبات السياسية (إنتخابات الشعب مثلا) تميل هذه العروش إلى الصراع الذي يصل إلى درجة الصدام، أما أثناء الفترات التي يثأر فيها موضوع الأراضي الجماعية لعكارة فإن هذه المجموعات تصبح ميالة للإلتحام. فلا تزال الملكية الجماعية للأرض بما أفرزته من مؤسسات (مجالس التصرف) وما تؤدي إليه من صراعات من حين إلى آخر، كإحدى أبرز تمظهرات الظاهرة القبلية تمثل مؤشرات لوجود هوية ثانية مسكوت عنها تتعايش مع الهوية الوطنية المعلنة. كل ذلك يقود إلى نزع صفات العتاقة والجمود والتخلف التي تنعت بها الظاهرة القبلية في مجتمعنا، لقد أثبتت الوقائع أن الظاهرة القبلية قادرة على التأقلم والتكيف مع مختلف التغييرات

التي تطرأ من فترة إلى أخرى وهي قادرة على التعايش مع مختلف الإستراتيجيات والأيديولوجيات السياسية مما جعلها تحظى بمكانة هامة ضمن هذه الإستراتيجيات والمعادلات حتى الظاهرة اكتست شرعيتها في كثير من الأقطار العربية مثل اليمن والأردن وليبيا وقد كانت القبيلة وراء كثير من الصراعات الخطيرة، ومن الصراع الذي انفجر فيما كان يعرف باليمن الجنوبي بين الفصائل (القبائل) الماركسية الحكامة سنة 1986 والذي سيخفي وراءه صراعات قبلية يؤيد صحة قولنا، وهو ما يقود إلى ضرورة الكف عن تجاهل الظاهرة ونعتها بأوصاف الرجعية والتخلف بل من الضروري التعامل معها بمرونة واعتبارها إحدى آليات مجتمعنا المعاصر كما هو الشأن بالنسبة لماضي هذا المجتمع ولعل النظر إليها ومقاربتها بطريقة مختلفة يؤدي إلى فهم علمي لهذا الواقع وبالتالي القدرة على تغييره نحو الأفضل.

في نهاية هذا العرض يمكن القول أن أي ظاهرة اجتماعية قابلة للدراسة والنظر مهما كانت درجة مجهريتها ومهما كانت درجة الضغوطات المحتملة، وكمثال على ذلك فقد اعترضتنا مشكلة المراجع في البداية وقد أمكن التغلب عليها بفضل التنوع الذي اعتمدناه والإستفادة من كثير من المكتبات والأرشيفات ومصادر المعلومات في تونس وخارجها وبالتالي التمكن من القيام ببحث رغم ما قد يعتريه من نواقص يمكن أن يمثل حلقة تمهيدية لأعمال وبحوث جديدة يمكن أن تعمق بعض الجوانب وتكمل النواقص.